

البناء

«فورين بوليسي»: «القومي» يكتسب شعبية متزايدة على أرض الواقع... «نور الزوبعة» مثلاً وقودة



ترجمة: ليلى زيدان عبد الخالق

كتبت نور سماحة لمجلة «Foreign Policy» الأميركية: صدم، سورية...

نمشي في شوارع البلدة السريانية الأرثوذكسية القديمة شبه المهجورة، والتي تبعد 35 ميلاً جنوب غرب مدينة حمص، يشير أدونيس نصر إلى لصقات على الجدران لمقاتلين لقوا حتفهم خلال دفاعهم عن المنطقة، واصفاً بالتفصيل الدور الذي لعبه كل واحد من هؤلاء.

«عند وصول جبهة النصرة، لم يكن هناك أحد في البلدة للدفاع عن السكان باستثناء بعض الرفقاء من الحزب السوري القومي الاجتماعي»، يقول الإعلامي في الحزب السوري القومي الاجتماعي، وهو المواطن اللبناني، البالغ من العمر 35 سنة. ويضيف نصر، الذي كان يحمل بندقيته متدلية فوق كتف واحدة، وكاميرا في يده الأخرى، وهو عضو في الجناح العسكري للحزب السوري القومي الاجتماعي المعروف باسم «نور الزوبعة»: «كانت معركة صعبة» في إشارة إلى المعركة التي خاضها أفراد الحزب ضد «جبهة النصرة» في نهاية عام 2014. «عثرنا على جثث بعض الأهالي المذبوحين والمزمين في الأبار: وكان على السلطات السورية أن تستقدم بعض المختصين لانتشال الجثث من مكانها».

صدم، وهي بلدة أمامية تقع في يابدة حمص، مشهورة بإنتاج اللبنة والزعتر وخمور الياستون، استطلعت بيوتها الطبيعية منخفضة الارتفاع، صدم هجمات المسلحين من «جبهة النصرة» و«داعش»، واحتلت أخبار المقاومة فيها عناوين الصحف العالمية. تعتبر صدم الآن، المنطقة أكثر أمناً، بسبب الدور الحاسم الذي لعبه مقاتلو الحزب السوري القومي الاجتماعي هناك في دفاعهم عن البلدة.

ففي سورية، يحظى نشاط الحزب القومي بتغطية إعلامية ضئيلة. وهذا الحزب هو حزب علماني لبناني سوري، وواحد من أقدم الحركات السياسية في الشرق الأوسط الحديث. ويلعب دوراً مهماً على أرض المعركة كداعم رئيس للحكومة الرئاسية بشار الأسد. ونتيجة لذلك، تحول من كونه مجموعة غير معروفة هناك، إلى أحد أكثر الدلائل شعبية، لحزب البعث الحاكم في معظم المناطق التي تسيطر عليها الحكومة.

تقول مصادر الحزب إن هناك حوالي 8000 مقاتلاً ينتمون إلى المجموعات المتناحرة في سورية، في حين ذكر المرصد السوري لحقوق الإنسان أن الرقم يقارب 6000 شخص. يتوقف نصر عن المشي، ويظهر مظلواً إلى ملصق صورة علاء نون، القتي اللبناني ابن 18 ربيعاً من بلدة حاويك على الحدود اللبنانية السورية، والذي انضم إلى صفوف الحزب عندما كان لا يزال في الثانية عشرة من عمره، ليبدأ القتال في عمر السادسة عشرة، وكان من أوائل الذين حملوا السلاح ضد المسلحين في القنصير، مدينة في غرب سورية، وهو مكان بعيد عن بلدته، بدأ نون يطالب بنقله إلى صفوف القتال الأمامية، لينتهي به المطاف شهيداً عام 2014 أثناء مواجهات للحزب مع «جبهة النصرة» دفاعاً عن مدينة صدم. وقد قتل بصاروخ «كورنيت» أصاب حافلة كانت تقله هو ورفاقه إلى داخل البلدة. «لم يتمكن الحزب السوري القومي الاجتماعي من استعادة جثمان نون إلا بعد مرور سنتين على استشهاده». يضيف أدونيس نصر، الذي حضر ماتم رفيقه في بلدته حاويك قبل يومين من حوارة معه: «وجدوا عظامه في بستان، واستطاعوا التعرف إلى رفاتهم من خلال لوحة معدنية بقيت مغروسة في كتفه من آثار عملية سابقة».

على درب الشهادة

بعد أسبوعين على حضور جنازة نون، ومرور عشرة أيام على دخول صدم، استشهد أدونيس نصر. ففي 19 شباط، أصيب هو وأربعة من رفاقه بصاروخ في ريف اللاذقية بعد تحرير قرية كنبسبا من أيدي المسلحين. ويعزو المسؤولون في الحزب السوري القومي الاجتماعي استشهاده نصر إلى الدعم العسكري الذي قدمته الولايات المتحدة وتركيها «لمعارضة» للقتال في تلك المنطقة. كما صرح مسؤول في الحزب بقتال في اللاذقية: «قتل أدونيس بصاروخ تاو الأمريكي بينما كان يلتقط صوراً للذخائر والمعدات العسكرية التركية التي خلفها

جميع الطرقات المؤدية إلى البلدة بواسطة الجيش، الذي يمنع أي شخص من الدخول أو المغادرة، خطوة أمنية نُفذت بعد سلسلة من الهجمات الانتحارية على الطرقات من قبل المسلحين. بدأ واضحاً أنّ المسلحين ينظرون إلى الدين كهيبة، أكثر من التطلع إليه كاعتقاد، وهذا يحذ ذاته مدمر». ويتابع أحمد: «أنا من سورية، إذاً، بالدرجة الأولى، أنا سوري الهوية، وهذا هو تحديداً ما يمثلته الحزب السوري القومي الاجتماعي في محاولة دفعه بالمجتمع قدماً».

أما مجد، الذي هرب مع عائلته من ادلب عام 2013 بعد هجوم «جبهة النصرة» على بلدته سلقين، وانضمّ إلى صفوف الحزب عام 2014، فيقول: «انتجبت هذه الأمانة واقعاً جديداً، وأدرك الناس جيداً أنّ فكرة البعث - العروبة قد انهارت: فقد أظهرت هذه العروبة أن ليس مع سورية والسوريين سوى السوريين أنفسهم، وأنّ العرب قد تخلوا عنهم».

قائد واحد من حمص، يبلغ من العمر 26 سنة، ويلقب بـ«الروسي»، بسبب جذوره السورية - الروسية، شارك في نقاشنا هذا، وكان قد سبق له الانضمام إلى الحزب منذ أربع سنوات، فور بدء الحرب هناك: «بدأت كمقاتل في الحيّ السوري مجتمعاً أفضل».

تتزايد شعبية الحزب القومي في سورية - بعدما نجح في إثبات نفسه كمقاتل شرس على الخطوط الأمامية في الحرب الدوائية الدائرة على البلاد. وفي يوم ملبّد بالغيوم في بلدة السقيلبية، على مشارف سهل الغاب، الذي يربط خطوط المواجهة الحاسمة بين حماه وادلب، وقف أدونيس نصر وبعض من مقاتلي الحزب السوري القومي الاجتماعي على قمة مبنى مهجور، يتناقشون في شأن أحدث المناورات العسكرية.

قبل أربع سنوات، أضحت البلدة واحدة من أعنف الخطوط الأمامية في الحرب، وكان لمقاتلي الحزب القومي - إلى جانب القوات المحلية الأخرى - دور ريادي في تنظيم دفاعات المدينة. ومنذ ذلك الحين، عانى آلاف السكان من الهجمات الصاروخية وذائف الحروب التي يطلقها مقاتلو «جبهة النصرة» و«أحرار الشام»، المتمركزون في البلدات المجاورة، يتجلى الضرر أكثر وضوحاً، على مشارف المدينة، حيث انهارت المباني المتخلفة، وتدمرت الشرفات وانهارت السقوف، فيما انتشرت السيارات المحروقة على جوانب الطرقات.

حاول المتشددون الاستيلاء على السقيلبية. يقول الياس ابن 36 سنة، وهو مقاتل محلي في الحزب القومي - باعتباره صلة وصل رئيسية بين حماه ومعاقل أخرى للحكومة على طول ساحل المتوسط. ووسط الموجة الأولى للهجمات، شكل الحزب السوري الاجتماعي وغيره من الفصائل المنتشرة في البلاد خطوط دفاع رئيسية، حيث كان الجيش السوري منهكاً في صدم معارك أخرى في أنحاء البلاد. ولم يكن الجيش السوري هناك في ذلك الحين، لذا، كان القرار يعود للبلدات، قال هذا، بينما كنا نسمع جولات متقطعة من إطلاق النار من بندقيته «23mm» المضادة للطائرات. ويؤكد الياس أنّ وجودهم كحزب كان محبباً جداً لدى السكان المحليين.

ثم تابع: «اعتدنا على التخوف من الحزب قبل الحرب بسبب أنشطته السرية، حيث لم يبيع القيمون عليه افتعال مشاكل مع الحكومة، وحالما تطور سياق الحرب، وراى السكان المحيطون أننا نتصرف بحكمة واحترام (...) بدأوا يهتمون أكثر فاكتر، في معرفة ما نحن عليه وما نطلبه».

والجدد في مقرات الحزب الكائنة في حمص، والتي رُزنت جدرانها مكاتبها الداخلية بصور لأنطون سعادة، خريطة سورية الكبرى، فضلاً عن صور لمقاتلين قوميين قُضوا في المعارك.

جلس في أحد هذه الغرف، مقاتلان سوربان جديبان نسيباً، أحدهما يدعى مجد، وهو سني من محافظة ادلب الشمالية، والآخر علوي من اللاذقية، يدعى أحمد. «لم أعرف الكثير عن الحزب ومفاهيمه قبل اندلاع الحرب على سورية، لأنني، مثل كثيرين غيري، لم تكن محاطين سوى



صقر

فإنه يصور التضال على أنه «حرب المقاومة ضد إسرائيل»، وأنه من واجب الحزب المشاركة وحماية المقاومة.

وينظر الحزب القومي إلى الحرب الدائرة على سورية اليوم على أنها محاولة لتقسيم سورية، العراق، ولبنان إلى طوائف إثنية وعرقية. «ما يحدث في سورية الآن، يُعتبر أسوأ - بما لا يُقاس - ممّا جنته اتفاقية سايبس - بيكو عند تقسيمها المنطقة مطلع القرن الماضي»، يؤكد مصدر عسكري في الحزب، ويضيف: «نقاتل لأجل إبقاء سورية موحدة، ونسعى إلى أن يفهم المزيد والمزيد من أفراد هذه الأمة، وجهة نظرنا». بالنسبة إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، فإن سورية الكبرى ليست مجرد مفهوم تجريدي. إنها ثقافة خاصة. لديها «أيام عطلة القومية»، تشييدها الخاص، وأعضاء حزبيها الذين يحنون بعضهم البعض قائلين: «تحيا سورية»، مخيمات الأشبال وورش العمل المنمحوحة حول تعزيز العلمانية، وطريقة العيش التي تشجع الناس على رؤية ذاتهم من خلال سورية أولاً، وعندما ينتهي أحد الأعضاء الجدد إلى الحزب، يُعمل على تدريبه على ضرورة التخلص من كل تفكير مرتبط بالتمييز العنصري والطائفي والاجتماعي، وبذل الجهد في تغيير أفراد الأمة من الداخل، لجعلهم أفراداً أرقى وأفضل.

«الثورة من الجامعات لا من الجوامع»...

يصرح عميد الخارجية في الحزب القومي، حسان صقر قائلاً: «بالنسبة إلينا، تكون الثورة حقيقية، عندما يتدفق المتظاهرون من الجامعات بدلاً من الجوامع... ونحن لا نعتقد أنّ الحرب في سورية هي تعبير عن الصراع بين الحكومة والمعارضة، بل هي حرب على سورية تهدف إلى تقسيم البلاد وأخذها بعيداً في التاريخ نحو العصور الجاهلية».

يقال الحزب السوري القومي الاجتماعي اليوم في سورية على الجبهات والخطوط الأمامية. وقد أرسل جنابهم العسكري، «نور الزوبعة»، المئات من المقاتلين إلى جميع المحافظات: حمص، اللاذقية، دمشق، السويداء، حماه، القنيطرة، ودرعا. يؤكد مقاتلو الحزب أنهم يتلقون - إلى جانب الدعم العسكري بالعتاد والأسلحة - تدريباً يومية على القتال مع السوريين، الروس وحزب الله. وعلى رغم وجود مقاتلين لبنانيين بين صفوف الحزب، إلا أنّ عديدهم انخفض مؤخراً بشكل ملحوظ في مقابل تزايد عديد السوريين، وذلك حسبما ذكرت مصادر الحزب القومي في لبنان وسورية.

أثناء تقاتلنا، شاهدنا عدداً من الكوادر والمقاتلين القداماء والجدد في مقرات الحزب الكائنة في حمص، والتي رُزنت جدرانها مكاتبها الداخلية بصور لأنطون سعادة، خريطة سورية الكبرى، فضلاً عن صور لمقاتلين قوميين قُضوا في المعارك.

جلس في أحد هذه الغرف، مقاتلان سوربان جديبان نسيباً، أحدهما يدعى مجد، وهو سني من محافظة ادلب الشمالية، والآخر علوي من اللاذقية، يدعى أحمد. «لم أعرف الكثير عن الحزب ومفاهيمه قبل اندلاع الحرب على سورية، لأنني، مثل كثيرين غيري، لم تكن محاطين سوى



الشهيد أدونيس نصر... وموكب تشييعه في الشويفات